

مقاربة لتفسير نشوء القومية وعوامل انتشارها (عرض وتحليل لنظرية بندكت أندرسون: الجماعات المتخيلة)

قسم الفولكلور -معهد الدراسات
الأفريقية والآسيوية- جامعة الخرطوم

د. عفاف عبد الحفيظ محمد رحمة

مستخلص:

لم تنتشر القومية بسبب جاذبيتها في أعين النخب السياسية الطموحة فحسب بل بسبب جاذبيتها في نظر الشعوب كذلك، فقد تعهدت الدولة القومية بمساواة كل المواطنين أمام القانون، ورفعت مكانة عامة الناس بجعلهم مصدرا جديدا للسيادة. على الرغم من ذلك فقد ارتبط صعود القومية بزيادة وتيرة الحروب الأهلية، والتطهير العرقي، ومعاداة الآخر. أصبحت القومية موضوعا للدراسات الأكاديمية في أعقاب الحرب العالمية الثانية حيث أسهم في دراستها ومحاولات تفسيرها كظاهرة وأيدولوجية وفي تفسير أسباب انتشارها وشعبيتها علماء التاريخ والسياسة والأنثروبولوجي والاجتماع. تحاول الباحثة في هذا المقال عرض نظرية (الجماعات المتخيلة لبندكت أندرسون 1983م) والتي تسعى (أندرسون) من خلالها لان يجيب على الأسئلة الحرجة بخصوص القومية: أصولها، كيفية انتشارها خارج أوروبا، وعلاقتها بالحدثة والطباعة والأسباب التي جعلتها تحظى بهذه الشرعية الوجدانية العميقة. كتب (أندرسون) عن القومية من منظور غير أوروبي. وبينما شجب الاستعمار امتدح القومية كأيدولوجية تلهم الحب والتضحية بالنفس الشيء الذي ينعكس في منتوجها الإبداعي من أدب وشعر وأغاني. وفي تفسيره لأصول القومية وأسباب انتشارها تسعى (أندرسون) الى مزج شيء من المادية التاريخية مع تحليل الخطاب ليضع أساسا لتحليلات قومية ما بعد الحدثة.

الكلمات المفتاحية: القومية، الجماعات المتخيلة، الرأسمالية، الطباعة، الأمة.

Abstract:

Nationalism not only spread due to its attractiveness in the eyes of ambitious political elites, but due to its attractiveness to the general public as well. The nation-state pledged to equality for all citizens before the law. It raised the people by making them a new source of sovereignty. Nevertheless, the rise of nationalism has been linked to the increased frequency of civil wars, ethnic

cleansing, and hostility to the other. Nationalism became a subject of academic studies in the aftermath of the Second World War, as historians, politicians, anthropologists, and sociologists contributed to its study as a phenomenon and ideology, and in explaining the reasons for its spread and popularity. In this article, the researcher is trying to present the theory (the imagined communities of Benedict Anderson 1983), which sought to answer critical questions of nationalism: its origins, how it spread outside Europe, its relationship with modernity and print capitalism, and reasons behind its deep sentimental legitimacy. Anderson wrote about nationalism from a non-European perspective. While he condemned colonialism, he praised nationalism as an ideology that inspires love and self-sacrifice, which reflected in its creative product of literature, poetry and songs. In his interpretation of the origins of nationalism and the reasons for its spread, Anderson sought to blend some of historical materialism with discourse analysis to lay the basis for postmodern nationalism analyzes.

Keywords: Nationalism, imagined communities, capitalism, print, nation.

مقدمة:

أثرت القومية (التي ربما كانت الأيدولوجية الأكثر أهمية في تشكيل العالم الحديث) بشكل حاسم في تاريخ العالم لأكثر من قرن من الزمان. وعلى الرغم من أنها طورت لأول مرة خصائصها الحديثة والمميزة في أواخر القرن الثامن عشر في أوروبا وأمريكا، إلا أنها انتشرت في كل أنحاء العالم تقريبا بحلول القرن العشرين. والقومية بأكثر الأوصاف عمومية هي أيدولوجية الانتماء إلى بلد معين. تطورت هذه الأيدولوجية في أوروبا خلال أواخر القرن الثامن عشر وأصبحت هي المعيار الذي يقاس عليه. وعبرت القومية عن نفسها بطرق عديدة، على سبيل المثال في توحيد إيطاليا (1871) وألمانيا (1871) وفي الحركات الداخلية للأقليات داخل الإمبراطورية النمساوية الهنغارية والتي أدت إلى حلها في أواخر القرن العشرين. وقد نتج عن ازدهار القومية أيضا تفكيك بقية الإمبراطوريات الأوروبية العظيمة بعد الحرب العالمية الثانية بالإضافة إلى تشكل ول أخرى خارج أراضيها السابقة.⁽¹⁾

وكما لاحظ (جون برويلي) فإن الأعداد الهائلة من المقاربات المختلفة

لفهم هذه الظاهرة هي المسئولة عن صعوبات تحديدها والنظر في أصولها حيث يقول: « يتم تعريف القومية واعتبارها بطرق عديدة. فعلى نطاق واسع جدا تشير القومية الى أفكار أو مشاعر وأفعال. وللوهلة الأولى توحي القومية بانها من اهتمامات المثقفين وأنها مصدر للمؤرخين الذين يستخدمون الكتب والمقالات والمطبوعات القومية الأخرى. وبالمعنى الثاني تفهم القومية كمشاعر وتصرفات وقيم، وباختصار تعنى الوعي الذي يميز ثقافة معينة. وهنا يميل المؤرخون الى التركيز على تطور اللغة وأمثلة أخرى لطرق الحياة المشتركة مثل الدين والفن. وبالمعنى الثالث تفهم القومية على أنها كيانات وتنمية تهدف الى تأكيد المصلحة الوطنية بطريقة أو بأخرى وهنا يكون تركيز المؤرخين على الأعمال السياسية والصراعات.⁽²⁾

حوار القومية:

اجتذبت القومية اهتمام الباحثين والمؤرخين وعلماء الأنثروبولوجي والسياسة كل من وجهة نظره، وقد تطورت دراساتها كميدان للاهتمام والبحث الأكاديمي منذ ظهورها في حوالي القرن الثامن عشر. لقد قسم الباحثون تاريخ دراسة القومية الى ثلاثة مراحل اعتبرت فيها المرحلة الأولى هي المرحلة الكلاسيكية التي امتدت خلال القرنين الثامن عشر الى القرن التاسع عشر، والتي غطت الفترة منذ ميلاد القومية وحتى العام 4191 (بداية الحرب العالمية الأولى). أما المرحلة الثانية في دراسة القومية فهي الفترة ما بين الحربين من العام 8191 والى العام 1945 حيث أصبحت القومية موضوعا للتحقيق والبحث الأكاديمي. بينما بدأت المرحلة الثالثة من العام 5491 وهي مستمرة حتى وقتنا الراهن، وهي المرحلة التي أصبح فيها الجدل الأكاديمي حول القومية أكثر كثافة وتنوعا، حيث ساهمت فيه مختلف الفروع المعرفية. كانت القومية حتى بداية القرن التاسع عشر موضوعا للدراسات في أوروبا فقط، ولم تجذب اهتماما واسعا بين الأكاديميين خارج أوروبا حتى النصف الثاني من القرن العشرين عندما بدأت في الانتشار في جميع أنحاء العالم عبر الوسائل السياسية والعسكرية. اهتم علماء المرحلة الأولى ومعظمهم من المؤرخين والفلاسفة الاجتماعيين بمزايا وعيوب القومية أكثر من اهتمامهم بأصولها وانتشارها حيث كان اهتمامهم بها أخلاقيا وفلسفيا الى حد كبير.⁽³⁾ وكانت المرحلة الأولعموما ثقافية وأدبية شعبية بحتة ولم تكن ذات مضامين سياسية. ففي أعقاب القرن الثامن عشر وتحت تأثير كبير للثقافة الألمانية، اجتاحت العاطفة الرومانسية الخالصة والبسيطة للمجتمع الريفي عموم أوروبا في رحلة إعادة الاكتشاف الفولكلوري للشعوب، حيث كانت اللغة المحكية هي اللغة السائدة. وحفلت هذه الفترة

بإعادة اكتشاف العادات والتقاليد الشعبية واحتفاءها بالعادات والتقاليد الوطنية لبعض شعوب الفلاحين الذين أصبحوا منسيين عبر التاريخ.⁽⁴⁾ تأثر الباحثين الذين كتبوا عن القومية في هذه الحقبة تأثراً شديداً بكتابات أسلافهم، على وجه الخصوص كتابات كانط (4271-4081م) وتلميذه (يوهان غوتفريد فون هيردر 3081-4471م) والذي كان يعتقد بفرادة الثقافات الوطنية وعدم قابليتها للقياس، وهذا ينطبق خصوصاً على اللغة التي تحمل طابع ذهن الجماعة الوطنية وشخصيتها إذ يتساءل هيردر قائلاً: (هل تملك الأمة أئمن من لغة آباءها؟ يسكن في هذه اللغة عالم كامل من التراث والتاريخ والدين ومبادئ الحياة وقلبها وروحها، وحرمان الأمة من لغتها أو الحط من شأنها هو حرمانها من أئمن ما تملك)⁽⁵⁾.

أثرت هذه الروح في التيار القومي الرومانسي لوسط وشرق أوروبا خلال القرن التاسع عشر حيث مثلت القومية محاولة لإعادة رسم الحدود السياسية وفقاً لحدود المجموعات العرقية.⁽⁶⁾ ووفقاً للقومية الرومانسية فكل قومية هي كيان عضوي مميز والأهم يجب أن تبنى على تقاليدها وأساطيرها.⁽⁷⁾ في المانيا، دعا (يوتفريد) أبناء بلده إلى عدم التخلي عن تقاليدهم الأصلية لصالح تقاليد الجنسيات الأخرى. وطلب منهم أن يعتزوا بأساليب حياتهم الخاصة والموروثة من أسلافهم والاعتماد عليها لبناء مستقبل أمتهم. وقد لفتت أفكار (يوتفريد) الاهتمام إلى الشعر الشعبي والأغاني الشعبية الألمانية وأشكالاً أخرى من الإبداعات ذات الصلة مثل الأساطير والحكايات الخرافية والأعراف والتقاليد فنشطت حركة جمعها وتحقيها ودراستها. فعلى سبيل المثال بدأ الأخوان (جاكوب 3681-5871 و) ويلهام جريم 6871-9581 في جمع ونشر الحكايات الشعبية الألمانية في العام 2181. وكانت أعمالهما مؤثرة للغاية وقد استقبلها الناس بحفاوة كأشكال نقية من الأدب الوطني⁽⁸⁾. على الرغم من أن المانيا كانت دولة ذات سيادة في فترة حياة (يوتفريد هيردر) إلا أن المبادئ القومية التي صاغها كانت تنطبق بشكل عام على جميع الدول التي كانت تكافح من أجل الوجود المستقل. ولم تلهم فلسفته القوميين الألمان فحسب، بل كانت أيضاً أساسية لمعظم الحركات القومية اللاحقة. كان (يوتفريد هيردر) يعتقد أن كل دولة يمكنها أن تسهم في تقدم البشرية من خلال تطوير أسسها الثقافية، وأن على الألمان تتحول دائماً إلى ماضيها الفولكلوري لتجد الأيمان في نفسها والشجاعة لمواجهة المستقبل. وقد أيقظت فلسفته وأعماله وجهوده اهتماماً مباشراً بالفولكلور ولفتت الانتباه إلى قيمته التاريخية والوطنية، وربطت هذه القيمة بإحياء ماضي الأمم ونمو وعيها الوطني، ووجدت فلسفته

للقومية قبولاً واسعاً خاصة من قبل الجماعات العرقية في أوروبا الوسطى والشرقية.⁽⁹⁾ لاحقاً أثمرت بذور القومية التي زرعها (هيردر) في أراضي عديدة، فقد تجاوب الناس من عرقيات مختلفة مع أفكاره عن إحياء ماضيهم عبر إعادة النظر في فولكلورهم وتراثهم الشعبي.

في العقود الأولى من القرن العشرين ووسط ركاب الحرب العالمية الأولى أصبحت القومية موضوعاً للاستقصاء الأكاديمي فالكتابات المبكرة لمؤرخين من أمثال (هانز كوهين 1791-1981) و(لويس سنايدر 1805-1878) كانت رائدة في التعامل مع القومية بوصفها شيئاً يجب تفسيره لا مجرد الدفاع عنه أو نقده. وكان مؤرخو هذه الفترة هم أول من شددوا على الجدة التاريخية للقومية، وحاولوا استكشاف الظروف البنيوية التي ولدت فيها. وعلى الرغم من أن كتاباتهم حفلت بالكثير من الجدل حول البدايات التاريخية التي شهدت ظهور القومية، وظروف ظهورها، ومحاولات تمييز أشكالها التي يمكن الدفاع عنها أخلاقياً من تلك التي لا يمكن الدفاع عنها أخلاقياً؛ إلا أن هذه الكتابات المبكرة كانت رائدة ومبشرة بجدل ونقاش حيوي حول القومية.⁽¹⁰⁾

بعد الحرب العالمية الأولى أصبح موضوع القومية بارزاً في نظر الجمهور حيث تم التلاعب بأفكار القومية وحق تقرير المصير من قبل القادة الحكوميين والصناعيين والعسكريين الذين كانوا مسؤولين عن إعادة رسم خريطة أوروبا. أصبحت القومية المعيار الدولي الإجباري مع تفكك معظم الإمبراطوريات الأوروبية وصعود دولة شيوعية في روسيا. وبينما كان علماء المرحلة الثانية يناضلون للاستجابة لهذه التغيرات الهائلة، كانوا مسيرين إلى حد كبير بالمخاوف السياسية. لقد حاولوا وضع تعريفات للقومية وتوليد نظرية يمكنها تحديد الظواهر ومواءمتها مع المفاهيم ذات الصلة، والتي يمكن أن تنطبق على مظاهرها ومواقفها المتنوعة. وفقاً لأنتوني سميث «حتى ذلك الوقت (خلال فترة ما بين الحربين العالميتين)، لم تكن هناك محاولة لصياغة نظرية عامة تنطبق على جميع الحالات، أو لحل التناقضات الخاصة بكل قضية بطريقة متماسكة ومنهجية».⁽¹¹⁾

إن محاولات توليد نظرية عامة عن القومية، وأصولها، وتأثيرها، وكيفية انتشارها، وكيف تؤثر في الواقع الفعلي، لم تكن واقعية حتى أواخر القرن العشرين عندما أصبح في الإمكان الفصل بين مفاهيم (الأمة) و(الدولة) و(القطر). ففي السابق كان التعلق الإيجابي ببلد ما يعرف ببساطة بالوطنية، حيث الولاء للدولة معادلاً ليس للانتماءات السياسية بل كان معادلاً للولاء لحكام الدولة الذين كانت أجسادهم تعنى حرفياً (الأمة) نفسها. لم يكن من

الممكن فصل مفاهيم (الأمة) و(الدولة) و(القطر) في السابق بشكل مترابط، حتى تؤخذ في الاعتبار الجغرافيا والسياسات والحكم والمواطنة كعوامل مستقلة بشكل موضوعي.⁽¹²⁾

تأثرت المرحلة الثالثة (بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وإلى الوقت الراهن) من دراسة القومية بشدة بعملية نهاية الاستعمار في آسيا وإفريقيا وقيام دول جديدة في تلك المستعمرات.⁽¹³⁾ لقد دشنت تجربة التحرر من الاستعمار مقترنة بالتطورات العامة في العلوم الاجتماعية الحقبة الأكثر كثافة وغزارة في الأبحاث المتعلقة بالقومية. كان على العلماء الذين كتبوا عن القومية خلال هذه الفترة أن يتعاملوا مع عوامل لم تكن معروفة لدى الأوروبيين في القرن السابق. ومع اكتمال انسحاب الاستعمار، شهدت البلدان الجديدة والأراضي التي كانت محتلة في السابق، إحلالاً تدريجياً للهويات التي فرضها عليها المستعمرون السابقين.

خلال هذه المرحلة، لم تعد النقاشات حول القومية تقتصر على المؤرخين ولكنها شملت علماء الاجتماع، والعلماء السياسيين بشكل روتيني. بدأ هؤلاء المشاركون في تنويع التحقيقات العلمية للموضوع. كانت أكثر العقود المثمرة لدراسة الأمة والقومية بين 0691 و 0991م، عندما ألقى العدد الكبير من كتابات الباحثين ذات التأثير الكبير (أندرسون، 3891؛ غيلنر، 3891؛ هوبسباوم 0991؛ خدوري 0691؛ سميث، 8991؛ رينجر، 3891) الضوء على أسئلة حول كيفية تعريف القومية، والأمة، والحركات الوطنية، والأدوار التاريخية التي لعبتها، ومع ظهور هذه الدراسات، وصل الجدل حول القومية إلى أكثر مراحلها نضجاً، حيث تجاوز منظرو هذه المرحلة الأسئلة الملحة التي طرحت سابقاً عن تعريف القومية وقدم الأمم والتفتوا إلى محاولات وضع نظرية شاملة تحيط بالظروف التاريخية والموضوعية التي قادت إلى نشوء القومية، وتفسير الكيفية التي انتشرت بها في العالم حيث مازالت تملك القوة على التشكل وتحريك الشعوب. وتنضوي تفسيرات (أندرسون) تحت مظلة مدرسة (ما بعد الحداثة) التي فسرت القومية ونشأتها وطبيعتها ووظيفتها. وتضم هذه المدرسة نظريات عديدة حاولت وصف نظرية متكاملة حول نشوء القومية وسبل انتشارها وربطتها بالحداثة وما أتاحتها الحداثة من تغييرات وقوي. ومن أهم منظري هذه المدرسة: ارنست غلنر (9291-5991)، أريك هوبسباوم (7191-2102م)، أنتوني سميث (9391-6102)، وكان آخر المفكرين في هذه المقاربة الاجتماعية / الثقافية هو ميروسلاف هروش (ولد 2391م). كل هؤلاء المفكرين ربطوا بين نشوء القومية وأصولها وبين الحداثة وقوي التصنيع التي

غيرت وجه العالم ابتداء من القرن الثامن عشر الميلادي، وأكدوا (باختلاف بعض التفاصيل في آراءهم وتفسيراتهم) إن القومية يجب أن تفهم بوصفها جزءا من التحول الاجتماعي والثقافي الذي تشكل في أوروبا بصورة بطيئة ومتدرجة منذ نهاية القرن الثامن عشر الميلادي.

نظرية (الجماعات المتخيلة) لبندكت أندرسون:

بندكت ريتشارد أندرسون (1639 - 5102) هو أستاذ فخري للدراسات الدولية، مُتخصص بالدراسات الآسيوية في جامعة كورنيل بالولايات المتحدة الأمريكية، وهو مؤرخ وأستاذ في العلوم السياسية. تعتبر نظريته (الجماعات المتخيلة) من أهم الدراسات النظرية في القومية حيث حاول عبرها التأسيس لظهور القومية وبزوغها في العالم الحديث، وتبيان الطرق التي انتشرت بها من أوروبا إلى كل أنحاء العالم، وتعد واحدة من بين أهم الأطروحات الأكاديمية في دراسات القومية في منتصف القرن العشرين. صاغ (بندكت أندرسون 6391- 5102) وقدم نظرية (الجماعات المتخيلة) في كتابه: *The Imagined Communities* الذي ترجمه الى العربية (ثائر ديب)، وقدم له بمقدمة ضافية (عزمي بشارة)، ونشرته (دار قدمس) في العام 9002م تحت عنوان: *الجماعات المتخيلة: تأملات في أصل القومية وانتشارها*.

قدم (أندرسون) ضمن هذا الكتاب بشكل منهجي رؤيته التي حاول فيها تفسير العوامل التي يعتقد أنها ساهمت في ظهور القومية خلال الثلاث قرون الماضية، كما قدم في هذه الرؤية بحثا معمقا في أصول الوعي القومي والوطنية، ومباحث في الأسباب التاريخية التي يعتقد أنها مهدت لظهور الفكر القومي، والأسباب التي يعتقد أنها ساهمت في نشر هذا الفكر من أوروبا إلى بقية العالم. ومن تعريف القومية انتقل (أندرسون) إلى رصد الجذور الثقافية لها، كما تعرض لما سماه (الموجة الأخيرة من القومية) ويعني بها انتشار القوميات في المستعمرات السابقة في آسيا وأفريقيا، وهي الموجة التي يعتقد (أندرسون) إن المستعمر مهد لها من خلال لغة التعليم، والحرف المطبوع، ومن خلال الإجراءات التصنيفية للشعوب المستعمرة مثل التعداد السكاني وغيرها.

ينطلق (أندرسون) من فرضية أساسية وهي إن الجنسية الوطنية والقومية هي منتجات صناعية ثقافية من نوع خاص، ومن أجل فهمهما بشكل صحيح فنحن في حاجة إلى اكتشاف كيف وجدت كل منهما، وبأي

طرائق تغير معناها بمرور الزمن، ولماذا حظيت بهذه الشرعية الوجدانية العميقة. إن محاولات الإجابة على هذه الأسئلة هي ما قاد إلى تطوير الإطار المفهومي الذي حاول (أندرسون) من خلاله تقديم نظرية متكاملة في نشوء وانتشار القومية. ويرى (أندرسون) إن التفسير المقنع للقومية يجب ألا ينحصر في تحديد العوامل الثقافية والسياسية التي تمهد لنمو الأمم، بل يكمن التحدي الحقيقي في إظهار كيف ولماذا اثارت هذه المنتجات الصناعية الثقافية الخاصة مثل هذه الارتباطات العميقة والوثيقة.

يفسر (أندرسون) القومية باعتبارها منتج ثقافي نشأ تلقائياً من خلال دمج قوى تاريخية منفصلة في نهاية القرن الثامن عشر، وإنها انتشرت في جميع أنحاء العالم بفعل قوى الحداثة والتصنيع التدريجي، الذي مكن الناس من تخيل أنفسهم كجزء من مجتمع محدد بالجنسية؛ وأنها بمجرد أن وجدت أصبحت نماذج يمكن محاكاتها في تشكيلة واسعة التنوع من البيئات الاجتماعية بواسطة تشكيلة واسعة من الأيدولوجيات ذات الصلة⁽¹⁴⁾.

تضمنت توضيحاته لهذه العملية الأحداث التاريخية التي صاحبت تطور القومية، والطرق التي تغير بها فهم الناس للقومية مع مرور الوقت، والكيفية التي أسهمت بها الحداثة في تسهيل عملية تخيل الأمم والانتماء إليها، والطريقة التي تغيرت بها معاني القومية وتجلياتها الثقافية بمرور الزمن، والأسباب التي تلهم بها القومية مشاعر التضحية والتفاني (إذ يلفت أندرسون إلى أن القومية تولد مشاعر من الإخاء والأواصر الوثيقة بين أفراد مجتمع ما، رغم أنهم لم ولن يلتقوا فيما بينهم أبداً) ولهذا فإنه يقترح أن هذه الأمة تتشكل عبر عمليات من (التخيل). وهو يعرف (الأمة) بقوله: «الأمة هي مجتمع سياسي متخيل» ويوضح أن التضمين بأن الأمة (متخيلة) لا يعنى أنها مزيفة أو غير حقيقية، ولكنه يقترح إن الأمة تبنى عبر مناهج شعبية يتشارك الناس من خلالها هوية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالأمة وبكلمات أخرى فإن الأمم (متخيلة): «لأن أفراد حتى أصغر أمة لن يعرفوا أبدأ أعضاء هذه الأمة الآخرين أو يقابلونهم أو حتى يسمعون عنهم ولكن يظل في عقل كل منهم صورة عن تشاركتهم هذه الهوية»⁽¹⁵⁾.

يعتقد (أندرسون) إن القومية والهوية القومية هي نتاج مباشر للتفاعل بين الرأسمالية الصناعية، وأفكار التنوير والإصلاح الديني، والتغيرات التي أنتجها الاثنان في طبيعة المجتمعات الأوروبية. ويجمل أطروحته الأساسية في أن إمكانية تخيل الأمة لم تنشأ تاريخياً إلا حين فقدت ثلاث تصورات ثقافية جوهرية، باللغة القدم جميعاً، سطوتها البديهية على عقول البشر:

- أول هذه التصورات أن هناك لغة مدونة بعينها تُمكن أتباعها من النفاذ إلى الحقيقة الأنطولوجية (حقيقة علم الوجود) ، وأنها جزء لا يتجزأ من تلك الحقيقة (ويعني بها اللغة اللاتينية التي كانت لغة الكنيسة).
- والتصور الثاني أن المجتمع منظّم حول مراكز أرفع من بقية البشر كالملوك يحكمون من خلال حق إلهي (يعنى بهم ملوك وأباطرة الإمبراطوريات الكبرى).
- أما التصور الثالث فهو تصور الزمن على ذلك النحو الذي لا يمكن التمييز فيه بين الكوزمولوجيا (الرؤية الكونية الشاملة) وبين التاريخ.⁽¹⁶⁾ وقد حدثت هذه التغييرات الأساسية في الثقافة والنظرة إلى العالم وتشكلت على نحو بطيء ومتفاوت كالتالي:

أولاً: تراجع ثم أفول اللغة (اللاتينية) المقدسة كلغة علم وثقافة وبرزت اللغات المحلية بدلا عنها:

كانت اللاتينية في أوروبا هي لغة القداسة، وهي لغة نخبة من محتكري الوساطة مع قيادة الكنيسة. كانت هذه الانتلجنسيا من رجال الدين أساساً ثنائية اللغة، تعرف لغة محلية إضافة إلى اللاتينية. وبتوسط هذه النخبة ثنائية اللغة بين اللغتين، فإنها تتوسط عملياً بين السماء والأرض بالنسبة لعالم المؤمنين ذاك. لم تكن اللاتينية لغة التعليم فحسب، بل كانت أيضاً اللغة الوحيدة التي تُعلّم، ولاحقاً اللغة الوحيدة التي تُطبّع. لقد بدأ حدوث التحول التدريجي في وضع اللاتينية كلغة مقدسة بين بداية القرن السادس عشر ونهايته، فلم تعد اللاتينية لغة الانتلجنسيا الأوروبية الراقية وبدلاً منها ساد استخدام اللغات المحلية في الطباعة.

في ذلك الوقت كتب (شكسبير) أعماله باللغة المحلية (فولتير) كذلك كتب جميع مراسلاته بلغته المحلية، وهكذا انخفض بشكل كبير عدد الكتب المكتوبة باللاتينية، وازداد عدد تلك المكتوبة باللغات المحلية، وكان ذلك مثلاً لسيرورة أكبر تجلت عبر تشظي الجماعات التي قام تماسكها على لغات مقدسة قديمة، وتعددها وتمايزها تدريجياً إلى جماعات مكانية، حين صارت غالبية الكتب تطبع باللغة المحلية في البلاد التي تنتشر فيها الطباعة. وحالما دخل رأس المال في عملية الطباعة ضاق بها سوق اللاتينية. فبعد إشباع سوق ثنائيي اللغة الذين تكلموا اللاتينية إضافة للغة المحلية انتقلت صناعة الكتاب إلى سوق أوسع عدداً بما لا يقاس، فغالبية البشر في حينها كانوا أحاديي اللغة. لقد عملت الرأسمالية والطباعة على خَلْقِ ضروب من جماهير القراء الذين يقرأ

كلّ جمهور منهم بلغته الواحدة⁽¹⁷⁾. باختصار فإن سقوط اللاتينية كان يمثل لسيرورة أكبر، راحت فيها الجماعات المقدسة التي قام تماسكها على لغات مقدسة قديمة تتشظى وتتعدد وتتمايز مكانيا على نحو متدرج.⁽¹⁸⁾

تزامن أفول اللاتينية كلغة مقدسة مع ظهور وتأثير حركة الإصلاح الديني في القرن السادس عشر في أوروبا الغربية؛ والتي ساهمت في انتشار اللغات المحلية على نطاق واسع لأنها تبنت الطباعة واللغات المحلية كوسيلة لنشر أفكارها بين الجماهير. قامت حركة الإصلاح الديني في القرن السادس عشر بهدف إصلاح الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا الغربية. وكانت شريحة واسعة من المسيحيين الغربيين قد أدانت انتشار ما اعتبروه أفكارا باطلة وتصرفات غير لائقة داخل جسم الكنيسة، وفي مقدمتها بيع صكوك الغفران وشراء رجال الدين للمناصب العليا كالمطران والكاردينال. قامت هذه الحركة على يد القس وأستاذ اللاهوت (مارتن لوثر 1483-1546م) والذي علق أطروحته في انتقاد الكنيسة الكاثوليكية على باب كنيسة مدينة (ويتنبرغ) في عام 1517م وشرحها في 95 بنداً. وقد تمكن (لوثر) بفضل الطباعة من نشر أفكاره الإصلاحية بلغته الألمانية في كلّ ركن من أركان البلاد في غضون خمسة عشر يوماً.⁽¹⁹⁾

تزايدت أعداد الكتب المطبوعة في ألمانيا عقب ذلك، وفي العقدين بين 1520-1540 كان عدد الكتب المنشورة في ألمانيا قد بلغ ثلاثة أضعاف ما نُشر في العقدين بين 1500-1520 وكان ذلك تحولاً مذهباً لعب فيه (لوثر) الدور المركزي المطلق فقد شكلت أعماله ما يزيد على ثلث مجموع الكتب المكتوبة بالألمانية والمباعة ما بين عامي 1518-1525م، كما ظهر في الفترة بين 1522 و 1546 ما مجموعه 430 طبعة (كاملة أو جزئية) من ترجمة الكتاب المقدس إلى الألمانية. كانت هذه أول مرة تكون فيها إزاء قراءة جماهيرية حقيقية وإزاء أدب شعبي في متناول الجميع.⁽²⁰⁾

شكلت أفكار (لوثر) هذه نقطة البداية لحركة الإصلاح البروتستانتي والتي قامت فيما بعد بترجمة الكتاب المقدس إلى اللغات المحلية الأوربية، ونشرته بحماسة بين الشعوب بعد أن كان ذلك ممنوعاً من قبل الكنيسة الكاثوليكية. ونشأ نتيجة لهذه الحركة مذهب مسيحي جديد خرج عن الكاثوليكية عرف بالبروتستانتية التي تعنى (الاحتجاج). وقد عرف هذه الإصلاح الذي قاده (مارتن لوثر) فيما بعد باسم الإصلاح البروتستانتي أو الإصلاح اللوثيري.

ثانياً: تراجع ثم أفول شرعية حكم السلالات الملكية غير الوطنية:

كانت الملكية السلافية تنظم كل شيء حول مركز رفيع، وتستمد شرعيتها من السماء (لا من السكان الذين هم في النهاية رعايا وليسوا مواطنين)، أو

عبر سياسات جنسية مثل الزيجات السلالية المتعددة التي كانت تجمع بين صنوف السكان. وفي حين أن سيادة الدولة (في التصور الحديث) تكون مبسطة وتامة على كل الحدود القانونية للدولة؛ فإن حدود الإمبراطوريات القديمة كانت تحدد بالمركز، وكانت غير متميزة بحيث أن السیادات متميزة تذوب واحدها في الأخرى على نحو دقيق لا تدركه العين. لهذا السبب استطاعت تلك الإمبراطوريات القديمة أن تحفظ ولعقود طويلة بسط حكمها على شعوب متباعدة ومتغايرة العناصر. ولكن ابتداء من القرن السابع عشر تراجعت سطوة تلك السلالات الحاكمة التي كانت تحكم بالمصاهرة والقرباة والنسبة دولا وبلدانا وشعوبا عدة في الوقت ذاته. في ذلك الوقت بدأ انهيار شرعية السلالات الملكية التي لا ترتبط بشعب أو مكان معين بقدر ما ترتبط ببعضها عبر أوروبا؛ ولا تتكلم لغة المكان بقدر ما تتكلم اللاتينية أو لغتها الأصلية التي قد لا تكون لها علاقة بالمكان الذي تحكمه والشعوب الخاضعة لها.⁽²¹⁾ لقد تحقق الانتقال من الحق السلالي إلى الشرعية القومية في شكل انهيار بطيء مع تنامي الثورات وتقدم التنوير في أوروبا وصولاً إلى نهاية الحرب العالمية الأولى.

ثالثاً: نشوء مفهوم جديد للزمن:

يرى (أندرسون) انه سيكون من قصر النظر أن نعتقد أن الأمم المتخيلة خرجت من أحشاء الجماعات الدينية والملكية السلالية أو حلت محلها. ذلك إن انهيار الجماعات واللغات والسلالات المقدسة كان يخفى تحته ما كان يعترى طرائق إدراك العالم من تغير جوهري، والذي عمل أكثر من أي شيء آخر على جعل التفكير في (الأمة) امراً ممكناً.⁽²²⁾ ويؤكد على أن كل هذه الظروف التاريخية التي تحدثنا عنها أدت إلى نشوء مفهوم جديد للزمن. يفصل هذا المفهوم الجديد زمن التكوين والخطيئة والخلاص الديني عن الزمن اليومي المعاش، ونشوء زمن تاريخي جديد في الأذهان، وهو زمن فارغ ومتجانس، ويمكن ملؤه بالمعنى. ويمكن خلاله تخيل ما يجري في الحاضر أفقياً، مثل تخيل أفراد جماعة يعيشون وتخيّل ما يقومون به في الوقت ذاته، ويمكن تخيلهم يفعلون نفس الفعل في نفس الوقت. وقد كرس تحرير وقراءة الصحف باللغات المحلية وأنتج مثل هذا الشعور في منشئه التاريخي فالصحف وحدث، وتوحد الزمن والأجندات والأحداث والفعل المتزامن لمجموعة محددة من البشر. لقد تزامن انهيار حكم الملكية السلالية في أوروبا مع تغير في طرائق إدراك الزمن من زمن إلهي لا يربط بين بدايته ونهاية العالم (الوشيكه دومًا تبعاً للتصور الديني) أي تسلسل تاريخي أو سببي، إلى زمن جعلته عوامل

التطور مترابطا يتقدم بثبات ويمشي معه العالم إلى الأمام. ومن أهم هذه العوامل التي ساهمت في تغير إدراك الزمن عاملين هما الرواية والصحيفة، واللذان ازدهرا في أوروبا خلال القرن الثامن عشر، ثم في أمريكا اللاتينية وفي آسيا، فجعلتا تخيل الأمة أمراً ممكناً عبر طرح أحداث وشخصيات ووقائع متزامنة لجماعة مؤلفة من ملايين البشر، وذلك من خلال إنتاجهما صناعيا كسلعتين تُنتَج إنتاجاً جماهيرياً ضخماً وبأعداد كبيرة.⁽²³⁾

إن انهيار المسلمات واليقينيات المترابطة البطيء والمتفاوت في أوروبا الغربية وفي أماكن أخرى بتأثير التطور الاقتصادي والاكتشافات الاجتماعية والعلمية وإطراد تطور وسائل الاتصال السريعة قد إسفيناً غليظاً ما بين علم دراسة الكوزمولوجيا (دراسة علم الكون وتركيبه العام) وبين التاريخ. والحال هكذا فلا عجب أنه جرى البحث عن طريقة جديدة للربط بشكل ذي مغزى بين الأخوة والقوة والزمن، ولعل ما من شيء عجل هذا البحث وجعله أشد خصوصية أكثر من رأسمالية الطباعة والتي مكنت أعداد متنامية من البشر من أن يفكروا في أنفسهم وأن يربطوا أنفسهم بآخرين بطرائق جديدة كل الجودة.⁽²⁴⁾ وباختصار غير مغل يقرح (أندرسون) أنه يمكن تبين الأصول الثقافية للأمة الحديثة على نقطة تقاطع ثلاث تطورات: تغير في مفاهيم الزمن، وانحطاط المجتمعات الدينية، وانحسار الممالك الوراثية، أما المكون المفقود فيوفره النشر التجاري للكتب والصحف على نطاق واسع أو ما يدعوه (أندرسون) الطباعة الرأسمالية، وقد وفر هذا أكثر من أي شيء آخر إمكانية أن تفكر الأعداد المتنامية بسرعة من الناس في أنفسهم بطرائق جديدة.⁽²⁵⁾ ويؤكد (أندرسون) بشكل خاص على وجود صلة جوهرية بين صعود الرأسمالية وتطور المطبوعات من خلال القول بأن الأدب الشعبي على سبيل المثال، ساعد في انتشار اللغات الوطنية، والوعي، والأيديولوجيات، ويقول: (إن التقاء الرأسمالية وتقنية الطباعة وعملهما على الانتشار المقدر للغات البشرية خلق إمكانية لوجود شكل جديد من المجتمع المتخيل، والذي مهد في شكله الأساسي لظهور للأمة الحديثة).⁽²⁶⁾ كما يرى (أندرسون) إن انتشار الطباعة كسلعة كان هو المفتاح في توليد أفكار التزامن الجديدة. وأنه سهّل بشكل فريد تخيل الأمة بينما ساهم توسيع سوق الكتب في انتشار اللغات العامية، واستخدامها في طباعة الصحف والمسرحيات والروايات، فأصبح يمكن بسهولة تعليم تلك اللغات لغالبية السكان، لأنها أصبحت مكتوبة ومطبوعة. ويؤكد (أندرسون) إن اللغات المطبوعة وضعت الأسس للوعي القومي عبر ثلاث طرائق فأوجدت أولاً مجالات موحدة للتواصل والاتصال تحت مستوى اللاتينية وفوق مستوى اللغات المحلية

المحكية فكشفت بذلك إمكانية تخيل ملايين القراء لآخرين يشاركونهم نفس اللغة والهوية. فالناطقون بتلك اللغات الضخمة من الفرنسيات أو الانجليزيات أو الإسبانيات ممن يجدون صعوبة أو حتى استحالة في فهم واحد منهم الآخر محادثة غدوا قادرين على التفاهم عبر الطباعة والورق وبات بمقدورهم شيئاً فشيئاً أن يدركوا وجود مئات الآف بل ملايين البشر في حقلهم اللغوي المحدد، وان يدركوا في الوقت ذاته انه لا ينتمي الى هذا الحقل سوى مئات الآف هذه أو الملايين وحسب. وزملاء أو إخوة القراء هؤلاء المرتبطون ببعضهم بعضاً من خلال الطباعة هم الذين شكلوا بخفائهم المرئي المحدد جنين الجماعة القومية المتخيلة.⁽²⁷⁾ وثانياً: منحت الطباعة الرأسمالية ثباتاً جديداً للغة ساعد في بناء صورة ذهنية للقدماء أدت دوراً محورياً في فكرة الأمة، وثالثاً: أوجدت الطباعة الرأسمالية لغات سلطة من نوع مختلفة عن اللغات المحلية الإدارية السابقة. لقد كانت المعرفة الجديدة التي وفرتها الطباعة مختلفة كلياً عن المعرفة القديمة التي وفرتها الكنيسة واللغة اللاتينية، فالجديدة تعيش على إعادة الإنتاج والانتشار من أجل الربح، بينما كانت القديمة لا تبحث عن هذا الربح، ومن ثم تقصر نفسها على نخب قليلة العدد. هكذا سهلت الطباعة بذلك تخيل الأمة لأن القراء كانوا يفترضون أن كل شخص كان يتلقى نفس المعلومات التي كانت متاحة للجميع في زمن واحد.⁽²⁸⁾ لقد فرقت رأسمالية الطباعة بين الناطقين باللاتينية على قلة عددهم، ولكنها نشرت اللغة المحلية ووحدتها بين أعداد أكبر بكثير من البشر وعلى ذلك يفترض (أندرسون) إن الطباعة مكنت عدداً متزايداً من الناس من التفكير في أنفسهم، وربط أنفسهم بالآخرين بطرق جديدة عميقة.⁽²⁹⁾ باختصار ينتهي (أندرسون) الى أن ما جعل المجتمعات الجديدة قابلة للتخيل هو تفاعل شبه اعتباطي لكن متفجر ما بين نظام إنتاج وعلاقات إنتاج رأسمالية وتقانة اتصالات (طباعة) وحتمية التنوع الإنساني.⁽³⁰⁾

القومية هي إذاً شكلٌ جديدٌ من الجماعة المتخيلة هيأ له لقاء تعددية اللغات البشرية مع الرأسمالية وتكنولوجيا الطباعة. وهكذا يرى (أندرسون) إن الأمة هي جماعة متخيلة، يتصورها المرء فينتهي إلى الآلاف والملايين من الناس المنتمين إليها أيضاً دون أن يعرفهم أو يرتبط بهم برابطة طبيعية، ولكنه قادر على تخيل هذه الرابطة. وكونها (متخيلة) لا يقلل من انتماءه لها، بل العكس، ربما يضطره التخيل، أو تضطره ضرورة التخيل إلى تقوية وشحذ هذا الانتماء بخيار أرفع وبوسائل أرقى.

بتكامل هذه الشروط التاريخية لنشوء القومية نكون قد أحطنا بتعريف

(أندرسون) للامة التي يصفها بقوله (جماعة سياسية متخيلة ومحددة وسيدة أصلاً: سياسية لأنه لم يكن ممكناً لها التخيل في انعدام المجال السياسي الحديث، كانت ممكنة فقط بعد نزع الشرعية الإلهية والحق الإلهي عن الملوك. متخيلة: لأن أفراد أي أمة، مهما كانت صغيرة، لا يمكن أن يعرفوا معظم نظرائهم المعرفة اليومية الضرورية كما في الأسرة والقبيلة. وسيدة: لأن مفهوم الأمة ولد في عصر كان يطيح فيه التنوير بسيادة أفكار الحق الإلهي للملوك. وهي جماعة لأن الأمة يجري تصورهما دائماً كعلاقة رفاقية أفقية عميقة، فهذه الأخوة هي ما مكن ملايين البشر خلال القرنين الماضيين لا من أن يقتلوا وحسب، بل من أن يموتوا راضين في سبيل هذه التخييلات المحددة).⁽³¹⁾

الموجة الأخيرة: القوميات في المستعمرات السابقة في اسيا وأفريقيا:

قدم (أندرسون) نظريته عن الظروف التاريخية لنشوء وتطور القومية ودعم نظريته بأمثلة من آسيا على الرغم من أن العديد من عناصره النظرية كانت مرتبطة بشكل واضح بالتاريخ الأوروبي، وخاصة في تصوره لأصول القومية. مع ذلك يرى (أندرسون) أن (الموجة الأخيرة) من القومية اندلعت في مناطق ما بعد الاستعمار في آسيا وأفريقيا الكولونيالية بعد الحرب العالمية؛ وكانت في الأصل رداً على الإمبريالية العالمية التي جعلتها منجزات الرأسمالية الصناعية ممكنة.⁽³²⁾ ويرى (أندرسون) إن هذه الموجة الأخيرة استمدت الهامها غالباً من النموذج الذي شكلته الحركات القومية المبكرة في أوروبا والأميركتين.⁽³³⁾

أوضح (أندرسون) بشكل مقنع دور الطباعة، وزيادة الحراك، وانتشار التعليم الحديث في عملية خلق (الأمم) التي خرجت من المستعمرات السابقة. كما أكد على دور النخب المتعلمة في نشوء القومية والتي قال إن دورها الطبيعي كان مستمداً من تعلمهم وثنائية لغتهم، فقد مكنتهم تعلمهم وقراءة المطبوعات من تصور الجماعة المتخيلة السابحة في زمن فارغ متجانس، بينما عنت ثنائية لغتهم توفير منفذ عبر لغة الدولة الأوروبية (دولة الاستعمار) الى الثقافة الغربية الحديثة بمعناها الواسع وخاصة الى نماذج القومية والانتماء الى أمة.⁽³⁴⁾ يعتقد (أندرسون) إن دور النخب المتعلمة في المستعمرات في اسيا وأفريقيا في رفع الوعي القومي وإذكاء روح القومية كان يكمن في قدرتها على الوصول الى نماذج من الأمة والقومية والتي مكنتهم من صياغة نسختهم الخاصة من القومية استجابة لأوضاعهم واحتياجاتهم. ويشير (أندرسون) الى سمة اتصفت بها النخب القومية في المستعمرات، ميّزتها عن نظيرتها القومية نصيرة اللغات المحلية في أوروبا، وهي أنها كانت مؤلفة من فتية يافعين

على نحو يكاد أن يشكل صفة ثابتة. وتشير الفتوة والشباب إلى الدينامية والتقدم والمثالية القائمة على التضحية، والإرادة الثورية بشكل عام، أما في المستعمرات فكانت تعني الجيل الأول الذي تلقى تعليمًا أوروبيًا فصله لغويًا وثقافيًا عن جيل آبائه.⁽³⁵⁾ ويفصل (أندرسون) دور هذه النخب في خلق القومية في بلدانهم المستعمرة بقوله: «وباعتبارهم من المثقفين ثنائيي اللغة، وقبل ذلك بوصفهم مثقفين من أوائل القرن العشرين، فقد تمكنوا من الوصول، داخل الفصول الدراسية وخارجها، إلى نموذج للأمة والوطنية والقومية المستمدة من التجارب المضطربة والفوضوية لأكثر من قرن من الزمن في أمريكا والتاريخ الأوروبي. هذه النماذج، بدورها، ساعدت في إعطاء شكل لآلاف من الأحلام غير المكتملة. وقد تم نسخ الدروس المستفادة من القومية الرسمية والعامة، وتكييفها وتحسينها في مزيج متفاوت. ومع السرعة المتزايدة التي غيرت بها الرأسمالية وسائل المواصلات والتواصل الفكري، وجد المثقفون في المستعمرات طرقًا لتجاوز الطباعة في نشر المجتمع المتخيل، ليس فقط للجماهير الأمية، ولكن حتى للجماهير المتعلمة والتي تقرأ بلغات مختلفة.»⁽³⁶⁾ وأخيرًا مكنت تقانة الاتصالات المحسنة أفراد هذه الطبقة المثقفة من نشر رسالاتهم لا بين الجماهير الأمية فحسب، بل أيضًا بين الجماهير المتعلمة التي تقرأ لغات مختلفة.⁽³⁷⁾ وكذلك تحدث (أندرسون) عن دور تقنيات الاتصال في نشر روح الانتماء إلى هوية ثقافية معينة بين أفراد المجتمعات الحديثة. على وجه الخصوص، ونسب الفضل إلى وسائل الإعلام في إيجاد مجتمع متخيل من خلال إنتاجها لحقول اتصال مشتركة وموحدة مكنت من نشر الاعتقاد بوجود مجموعة متخيلة من الناس الذين يتشاركون قيم ومصالح مشتركة والتزامات متبادلة.⁽³⁸⁾ ويلاحظ (أندرسون) أنه من بين أهم العوامل التي مكنت من تخيل المجتمعات في هذه الدول في فترة ما بعد الاستعمار هي الزيادة الهائلة في الحركة، والتي أصبحت ممكنة بفضل الإنجازات المذهلة للرأسمالية الصناعية، والتي تمثلت في السكك الحديدية والبواخر في القرن التاسع عشر، والطيران في القرن العشرين.⁽³⁹⁾ بالإضافة إلى ذلك، ركز (أندرسون) على التعليم الحديث الذي كان قد بدأ في التوسع. كانت الحاجة للتعليم قد توسعت في هذه المستعمرات وفقًا لـ (أندرسون) (ليس فقط استجابة للحاجة للكتابة المتعلمين لإدارة المستعمرات، بل أيضًا بسبب القبول المتزايد للأهمية الأخلاقية للمعرفة الحديثة، حتى بالنسبة للسكان المستعمرين).⁽⁴⁰⁾ إلا أن التعليم الحديث الذي أدخله المستعمر ساهم في خلق طبقة مثقفة ناطقة بلغتين، لكنها تشعر بالعزلة والوحدة، وهي غير مرتبطة

بالطبقات البرجوازية المحلية القوية؛ وقد أصبحت هذه الطبقة فيما بعد ناطقة أساسية باسم القوميات في المستعمرات.⁽⁴¹⁾

يعتقد (أندرسون) أيضاً أن الاستعمار لعب دوراً هاماً في التمهيد لظهور القوميات في الأراضي التي كان يحتلها. فقد ساهم المستعمر في بزوغ القومية في مستعمراته عن طريق فرض لغته على تلك المستعمرات، الشيء الذي ساهم في تكوين هذه النخب ثنائية اللغة والتي استطاعت أن تجد مداخلًا للتعرف على التجارب القومية خارج إطار مستعمراتها. وإضافة إلى ذلك ساهم الاستعمار في التمهيد لظهور القوميات بإجراءاته الإحصائية والتصنيفية التي اتبعها في المستعمرات بداية من رسم الخرائط، والحدود الإدارية بين المناطق، ونهاية بإجراء التعدادات السكانية وتصنيف وتقسيم الشعوب المستعمرة حسب أعراقهم، الشيء الذي جلب مفاهيم جديدة مثل (العرق) و(الإثنية)، والتي أسهمت لاحقاً في تمايز دول قومية عن أخرى ضمن تلك المستعمرات.

يتطرق (أندرسون) في هذا الخصوص إلى مؤسسات السلطة والتي استخدمها المستعمر في إعادة تشكيل المكان والسكان والإقليم وهي: التعداد أو الإحصاء السكاني، والخريطة، والمتحف (وهي إجراءات ذات تأثير عميق في تفكير الدولة الاستعمارية في مستعمراتها الخاضعة لها إذ عنت بطبيعة البشر الذين تحكمهم وجغرافية المستعمرة وشرعية الأسلاف). يقول أندرسون إن الدولة القومية التي نشأت في المستعمرات، نشأت أولاً في تخيلات الدول الاستعمارية نفسها. وقد ظهر ذلك من خلال التعداد والخارطة والمتحف. وهي التي صاغت الطريقة التي تخيلت بها الدولة الاستعمارية مجال نفوذها وسلطانها. فالتعداد يمثل طبيعة البشر الذين تحكمهم، والخارطة تمثل جغرافيا أملاكها، والمتحف يمثل شرعية أسلافها، وعبر هذه الأدوات صاغت الدول الكولونيالية مجال نفوذها وسلطاتها بشرياً وجغرافياً.

كان الإحصاء السكاني الذي أجراه الاستعمار يحدد التصنيف ويغيره عدة مرات تحت مفاهيم رؤيته هو للناس وليس كما يرون هم أنفسهم. وهيتصنيفات لم يكن تظهر قبل الاستعمار بهذا المعنى ولا بأي معنى مشابه، وكان مجرد الإعلان عن هذه المعلومات والنسب التصنيفية للسكان، وتعامل الإدارة الاستعمارية معهم على أساس هذه النسب والتصنيفات على مستوى التمثيل أو التوظيف يعود الناس على فهم أنفسهم كطوائف وديانات أو أعراق مختلفة عن بعضها البعض. هكذا جعلت الدولة الاستعمارية هذه النسب والتصنيفات هي العناصر التي تتألف منها المستعمرة، أو التي يريد هي أن تتألف منها المستعمرة. ويلفت (أندرسون) إلى أنبيانات التعداد كانت تغدو عرقية على نحو

أوضح واشد حصرية كلما طالت الفترة الاستعمارية، وانباتت الهوية الدينية من جهة أخرى تخففي بصورة تدريجية كبيان تعدادي أساسي.⁽⁴²⁾ لقد خلق هذا على كل حال الكثير من التوترات العرقية والطائفية والقبلية في عدد من الدول المستقلة حديثا في أفريقيا وآسيا. وبعيدا عن الدول التي يبدو أنها قد أسست ما يبدو انه تسوية مؤقتة متعددة العرقيات، تظهر في كل حين دعوات تنادى بتقسيم الدولة الى أقاليم متجانسة عرقيا ودينيا وثقافيا، ويبدو دوما إن ذلك هو ما تنشده شعوب تلك الدول أو قادتها أو المتحدثون الرسميون باسمها.

أما الخريطة التي جاء بها المستعمرون، فقد صوّرت الأرض والطبيعة في تجريد مسطح من زاوية نظر الطائر. وهي زاوية نظر لم تكن مألوفة ولا معروفة في هذه البلدان. لقد وضع المستعمر حدودا إقليمية ليس لها دائما علاقة بالجماعات واللغات التي تقطنها، ولا حتى بالتضاريس الطبيعية حيث قطعت الحدود التواصل ومسحت الأرض والبحار بعين واحدة، هي عين النفوذ الاستعماري. ثم ما لبث أن أصبح ممكنا إخراج مساحة البلد المعني من سياقه كخارطة منفصلة وتثبيته وحده على اللوح أو في الكتاب كوطن (متخيل)، لا يلبث أن يكتب له تاريخ متخيل أيضا. ونقول (متخيل) لان هذا الجزء الذي تم قطعه من الخارطة لم يشهد إطلاقا بشكله هذا وبحدوده هذه تاريخا خاصا به يجمعه سوية ويفصله عن غيره.⁽⁴³⁾

أما عن علم الآثار الاستعماري فيشير (أندرسون) الى الاهتمام البالغ الذي أبداه الاستعمار بالآثار القديمة لحضارات البلاد التي احتلها، مفسرا ذلك بأنه محاولة لمقاومة ضغط التقدميين الأميين، وأيضاً كان المستعمر يربط نفسه بالقديم باعتبار أن كلاهما يعد فاتحا للبلاد. وفيما بعد يعتمد المستعمر الى فصل الآثار على وجه الخصوص الآثار العمرانية العظيمة عن السكان المحليين ومناطق سكنهم (فلا علاقة للماضي الجيد بهم وبحاضرهم)، ويحولها الى منتزه.⁽⁴⁴⁾ كانت هذه الآثار تحاط بمروج خضراء وتوضع لها اللوحات الشارحة المشفوعة بالتواريخ هنا وهناك، مع الحرص أن تبقى هذه المواقع خالية من البشر إلا من السياح الذين يتجولون هنا وهناك، ويحولها الى (متحف) على هذا النحو فقد كان يعاد تحديد موقع هذه الآثار بوصفها (عدّة كولونيالية علمانية،⁽⁴⁵⁾ كشفت بشكل متواصل عن القوة الفعلية التي تميزت بها القوى الكولونيالية. ولأن الخارطة أصبحت بمثابة (لوغو) يمكن تمييزها على الفور وتُرى في كل مكان، فقد اخترقت عميقاً الخيال الشعبي وباتت رمزاً قويا للقومية الوليدة المناهضة للكولونيالية، شأنها شأن المتحف الذي ولد على أيدي الدول

المستعمرة كدليل على عمق علاقتها بجميع ما يخص مستعمراتها مهما أوغل في القدم، ليكمل وظيفته في الدولة المستقلة بوصفه علامة من علامات الهوية القومية.

وهكذا نرى: حدد التعداد الجماعات البشرية الموجودة في المستعمرة، اثنيا ودينيا وقلبيا، كما حدد بنيتها الطبقية والقوة البشرية اللازمة للتجنيد والعمل اقتصادياً وعسكرياً وصهرها في جماعة متخيلة ضمن حيز حدده، وباتت الخارطة ضرورية لآليات الإدارة الجديدة للجيش كي تؤكد ما تدعيه من حقوق، بينما أتاح علم الآثار والذي تزايد ارتباطه بالسياحة للدولة أن تظهر كحارس لتراث عام لكنه محلي أيضاً. وهكذا ساهمت هذه الإجراءات جميعاً (التعداد، الخارطة، المتحف) في صياغة القومية والدولة في أوروبا ولكنها عدلت من دورها في المستعمرات، فاستخدمت هناك لصياغة المكان الذي تستعمره، وصياغة كيفية تخيله لكي تكون قادرة على حكمه؛ ورسمت هذه الإجراءات وصفت طبيعة المكان وطبيعة البشر الذين تحكمهم وطبيعة أسلافهم لكي تحكمهم ووضحت بارتباطها معاً كيف كانت الدولة الكولونيالية تنظر الى منطقة نفوذها.⁽⁴⁶⁾

وكما سبق أن أسلفت، فقد اجمع الكثير من منظرو القومية على أن منتجات الحداثة لعبت على الدوام كوسائل للتعبير عن الميول القومية في المجتمعات المدنية التي تمتعت بنوع من الحداثة والتقنيات الحديثة، ولذلك فإن تحليل (أندرسون) ليس جديداً بالكلية لكن يمكن القول انه استطاع أن يواءم بين التصورات التاريخية وبين استخلاصاته من الحوار المثمر الممتد والذي أثاره الكثير من المفكرين في مسألة القومية ليصوغ نظرية شاملة تحيط بنشوء القومية وعوامل انتشارها.

كان (ارنست غلنر) من المفكرين الذين عنوا بالتحويلات الاجتماعية/الثقافية في فهم القومية؛ وهو يعتقد بدوره إن القومية نتاج للتنظيم الاجتماعي الصناعي، وإن القومية والأمة نتيجة لعالم (الحداثة) والوقائع الجديدة المستحدثة فيه. ويقترح (غلنر) أن الأمم لا يمكن تعريفها إلا بتعبيرات عصر القومية، لأن القومية هي التي تولد الأمم، وليس العكس، وجادل بأن القومية ظهرت نتيجة للتحديث، والانتقال من مجتمع زراعي إلى مجتمع صناعي حيث ركزت نظريته على الجوانب السياسية والثقافية لذلك الانتقال حيث يؤكد بأنه مع الحداثة تنهار كل الأسس المكونة للجماعات التقليدية المغلقة، ويتغير العالم بشكل جذري وتحل محلها جماعات حديثة أو أسس جديدة للتجمع والتآلف، متصاحبة مع ثقافة وأسس فكرية حديثة.

على وجه الخصوص، ركز (غلنر) على الأدوار الموحدة والمتجانسة ثقافياً للأنظمة التعليمية، وأسواق العمل الوطنية، وتحسين الاتصال والتنقل في سياق التحضر. وجادل بأن القومية كانت متوافقة إلى حد كبير مع التصنيع وتخدم الغرض من استبدال الفراغ الأيديولوجي الذي خلفه كل من اختفاء ثقافة المجتمع الزراعي السابقة والنظام السياسي والاقتصادي للإقطاع.

وحسب رأيه أنه في المراحل السابقة للحدث (ما قبل الحدث) كان هناك عالم مغلق وضيق من النواحي السياسية والثقافية، انعدمت فيه فرص وإمكانات ولادة القومية، وتجلّى هذا في الجوانب التنظيمية وآلياتها أو المبادئ السياسية، والتي تساعد على إيجاد الأمة عبر ظروف وواقع الحدث. وباختصار، تعتبر القومية من وجهة نظر (غلنر) نتاجاً وخلقاً سياسياً واجتماعياً وثقافياً وتنظيمياً حديثاً، حيث يربط بين نشأة الأمم والقومية وعمليات التصنيع، والتحديث، والإصلاح الديني، ونشأة الرأسمالية، وظهور التوسع الإمبريالي ومقاومته، ويؤكد على أن القومية هي في الحقيقة أثر من آثار التنظيم الاجتماعي الصناعي. ويشير إلى أن (عصر الصناعة) أدى إلى الزيادة السكانية، والتمدن السريع، والهجرة، وزيادة فرص العمل الجديدة، وتقسيم العمل، وكذلك الاختراق الاقتصادي والسياسي لجماعات منغلقة على ذاتها سابقاً، وبالتالي إلى اقتصاد شامل وحكومة متركزة. وكما توجد صلة بين القومية وعمليات الاستعمار والإمبريالية والتحرر من الاستعمار، كان التوسع الاستعماري هو النتيجة اللاحقة لظهور المجتمع الصناعي في أوروبا الغربية وهذا بدوره أدى إلى ظهور القومية وانتشارها عبر العالم.⁽⁴⁷⁾

ويتفق (أندرسون) مع (غلنر) في فكرة أن القومية ظاهرة حديثة ومن نتاج الحدث، ولكنه يختلف عن (غلنر) في تركيزه على الجانب الثقافي عموماً وبالأخص على دور الطباعة في توحيد الثقافة واللغة، وأن انتشار الطباعة كسلعة كان هو المفتاح في توليد أفكار التزامن الجديدة. ومن هذا المنطلق فهو يؤكد على دور وسائل الإعلام واللغة المطبوعة في خلق آراء وأفكار وتصورات موحدة حول الهوية الجماعية وخلق مفهوم جديد للزمن، لأن الناس كلهم باتوا يتلقون نفس المعلومات والآراء والأخبار بنفس اللغة في نفس التوقيت، وهذه كلها عوامل عملت على توحيد المشاعر والتصورات للحياة والوجود والنظر إلى الذات والآخرين، بحيث إن الجماعة تتخيل نفسها كوحدة واحدة أو جماعات متماثلة ومتشابهة في داخلها مع بعضها البعض، والتخيل يخلق الأمة ويميزها، وأن كل هذا ما كان ليتحقق دون ما توفره وتقدمه الحدث من الإمكانيات المادية والمعنوية.

أما (هوبزبوم) فهو يقر بأن القومية من منتج من منتجات الحداثة، وهو يرجع جذورها إلى الثورة الفرنسية (9871م)، لكنه يركز كثيراً على عنصر الخلق والإبداع أو الاختراع (Invention) في نشوء القوميات. ويرى (هوبزبوم) إن هذا الاختراع كله تيسر عن طريق الاقتصاد والإعلام وآليات وإمكانيات التنظيم الاجتماعي الحديثة، وهذه الإمكانيات لم تتوفر في تاريخ البشرية إلا في مرحلة الحداثة، وهي إمكانيات وقدرات تحقق الانسجام والاندماج والترابط بين أفراد الجماعة (الأمة). وفي أهمية الحداثة في نشوء القومية يتفق (هوبزبوم) مع (أندرسون) لكن (هوبزبوم) يركز أكثر على فكرة أهمية (الخلق والاختراع) حول ظاهرة القومية، إذ يعتقد (هوبزبوم) إن القومية تستخدم التاريخ والموروث إلى درجة أنها يمكن أن تقوم (بتزييف التاريخ) أو (إعادة إنتاج الموروث)، وأن خلق أمة جديدة كان ينطوي دائماً على خلق تواريخ جديدة، وإعادة خلق أحداث قديمة أو رمزيات جديدة لموروثات قديمة. ويتجلى إبداع التواريخ على الساحة القومية في نظر (هوبزبوم) في أن بعض الأمم تولي أهمية خاصة لتواريخ بعينها، وتغض النظر عن تواريخ أخرى خاصة، إذ تركز على ما يوحد الجماعة في التاريخ مثل الانتصارات والبطولات بالإضافة إلى المآسي والكوارث التي عانت منها الجماعة من قبل، بينما تهمل وتتجاهل لتواريخ والموروثات التي يمكن أن تؤدي إلى إضعاف التلاحم والوحدة بين أبناء الأمة.⁽⁴⁸⁾ وفيما يتعلق بدور منتجات الحداثة في التعبير عن القومية فقد أكد (هوبزبوم) على دور وسائل الإعلام في التعبير عن الهوية القومية للشعوب الأوروبية في أعقاب الحرب العالمية الأولى، إذ يشير إلى الدور الذي لعبته وسائل الإعلام الحديثة كالسينما والراديو في التعبير عن الهوية القومية في ذلك الوقت في المجتمعات الأوروبية المدنية الحديثة عالية التقنية ومن خلال هذه الوسائل أمكن للأفكار الشعبية أن تتعدل وتتجانس وتتحول إضافة إلى استغلالها لأغراض الدعاية الموجهة من قبل المصالح الخاصة والدول. ويؤكد (هوبزبوم) إن وسائل الإعلام في ذلك الوقت نجحت في جعل ما كان في الواقع رموزاً وطنية يتحول ليكون جزءاً من حياة كل فرد وبالتالي كسر الحواجز بين ما هو خاص وما هو وطني.⁽⁴⁹⁾

أما فيما يخص انبعاث القومية في المستعمرات، فقد أكد (إيلي خدوري) أيضاً على دور الأجيال المتعلمة في صعود القومية في المستعمرات الآسيوية والأفريقية.⁽⁵⁰⁾ لكن إسهام (أندرسون) الرئيسي يكمن في تحديد كيف أن هذه العمليات الثقافية جعلت الشباب والمتعلمين يؤمنون بالأمة، يتخللونها ويحلمون بها.⁽⁵¹⁾ وفي حين ينظر (خدوري) إلى الأشخاص المهمشين سياسياً واقتصادياً في المستعمرات السابقة على أنهم نتاج للسخط والإحباط

المتولد من عملية تمزق النسيج الاجتماعي يرى (أندرسون) إن هؤلاء ليسو ببساطة أشخاصا ماكربين متعطشين للسلطة، بل هم على استعداد تام للإيمان بالأمة التي يتخيلونها. وعلى النقيض من بعض منظري القومية (مثل ارنست غلنر) و (ايريك هوبزبوم) اللذين تبنيوا موقفا معاديا للقومية، لم يتبن (أندرسون) موقفا معاديا من القومية، بل يعتقد أن القومية يمكن أن تكون أيولوجيا جذابة بالفعل وإنها تشجع السلوك القويم.⁽⁵²⁾ وإنها تتضمن وتلهم الحب. وكما أشار (أنتوني سميث) من قبل إلى أهمية الخيال في فهمنا للسياسة وللقومية قائلا «إن القوميون دائماً ما كانوا يصورون أمتهم المختارة في صور زاهية، بل متقدمة، وهم ينشدون الأناشيد في جمال الريف الوطني ومآثر الأبطال الوطنيين». ⁽⁵³⁾ دفع (أندرسون) في مواجهة الاتهامات التي طالت القومية وجذورها من كراهية الآخر وعلاقتها بالعنصرية، وفي وصفه لطبيعة (منتجات القومية) الإبداعية من شعر وأغاني يقول (أندرسون): «إن الأمم عادة ما استلهمت الحب وعبرت عنه في هذه المنتجات بل عادة ما ضحت به بعمق (....) ويظهر منتج القومية من شعر قومي، وقصة نثرية، وموسيقى، وفن تشكيلي هذا الحب بوضوح وفي آلاف الأشكال والأساليب المختلفة». ويعلق (أندرسون) قائلا: «كم من النادر أن نعثر على منتج قومي يعبر عن الخوف أو الكراهية، حتى في حالة الشعوب الخاضعة للاستعمار والتي لديها كل الأسباب للشعور بالكراهية تجاه حكامهم الامبرياليين نجد من المدهش حقا كيف أن يكون عنصر الكراهية غير وارد إطلاقا في التعبير عن هذه المشاعر القومية». ⁽⁵⁴⁾

اعتبرت نظرية (الجماعات المتخيلة) من أهم الأطروحات الأكاديمية في القرن العشرين وقد جعلها النطاق الواسع للمباحث التي عرضها (أندرسون) فيها وتنقل بينها بثقة عالية واحدة من النظريات البارزة في مجال نشوء وانتشار القومية. وبالنظر إليها عبر السياق الواسع والنقاش المستمر في موضوع دراسات القومية يمكن أن نقول إن (بندكت أندرسون) تمكن من الخروج من نطاق الأفكار السائدة في موضوع القومية، وأنه استطاع أن يضع إطارا مفهوما يفسر عبره طرق نشوء الوعي القومي، وطرق انتشار القومية من أوروبا إلى بقية أنحاء العالم وحتى طرق بزوغ القومية في المستعمرات السابقة في أفريقيا وآسيا. وفي حين بشر بأن «نهاية عصر القومية»، التي طالما جرى التبشير بها، لا تلوح في الأفق ولو من بعيد، لأن الانتماء إلى أمة ما، هو القيمة التي تحظى بأكبر قدر من الشرعية الشاملة في حياة عصرنا السياسية»، نقلت نظريته (الجماعات المتخيلة) دراسة المسألة القومية إلى مستوى غير مسبوق، ومهدت لحقول بحثية جديدة في مقاربتة، كما ألهمت آلاف الباحثين حول العالم لتطبيق نظريته على العديد من البلدان التي شهدت نشوء الروح القومية تحت ظروف تاريخية معينة.

المصادر والمراجع:

- (1) Kramer, Lioyd, 2011, Nationalism in Europe and America: Politics, Cultures, and Identities Since 1775, North Carolina, University of North Carolina Press, p25
- (2) Breuilly, John, 1993, Nationalism and the State, London, Manchester University Press, 404
- (3) Kumar, Krishan, 2006, "Nationalism and Historian", in: The SAGE handbook Nations and Nationalism, London, SAGE Publications, p72-
- (4) هوبزبوم، ايريك، 2013م، الشعوب والقوميات منذ عام 1780م: المنهج والخرافة والحقيقة، ترجمة مصطفى حجاج، أبو ظبي: دار الكتب الوطنية، ص 101
- (5) اوزكريملي، اوموت، 2013م، نظريات القومية (مقدمة نقدية)، الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ترجمة معين الإمام، ص 41
- (6) Dorson, Richard, 1978, Folklore in the Modern World, London, Mouton Publishers, pp 1214-
- (7) Dorson, Richard, 1972, Folklore and Folklife, Chicago, University of Chicago Press, p 5
- (8) Dorson, 1978, Op. Cit, p 12
- (9) Wilson, William, 1973, "Herder, Folklore and Romantic Nationalism", Journal of Popular Culture, Vol VI, No. 4, pp.819835-
- (10) اوزكريملي، مرجع سابق، ص 71¹⁰
- (11) Smith, Anthony, 2003, Nationalism and Modernism: A critical Survey of Recent Theories of Nations and Nationalism, London, Taylor & Francis, p 10
- (12) Ashcroft, David, 1987, A Critical Evaluation of Theories of Nationalism, thesis (PhD), University of Aston, p7
- (13) Kedourie, Ellie, (ed.) 1970, Nationalism in Asia and Africa, Washington, the World Publishing Company, pp16-
- (14) أندرسون، بندكت، 2009م، الجماعات المتخيلة: تأملات في أصل القومية وانتشارها، ترجمة ثائر ديب، بيروت: قدمس للنشر والتوزيع، ص 79
- (15) نفس المرجع، ص 52

- (16) نفسه، ص33
(17) نفسه، ص34
(18) نفسه، ص61
(19) نفسه، ص74-75
(20) نفسه، ص75
(21) نفسه، ص61
(22) نفسه، ص63
(23) نفسه، ص70
(24) نفسه، ص70-71
(25) اوزكيريمللي، مرجع سابق، ص 200.
(26) المرجع السابق، ص34
(27) نفسه، ص 78
(28) نفسه، ص 34-36
(29) نفسه، ص33
(30) نفسه، ص78
(31) نفسه، ص53
(32) نفسه، ص141
(33) نفسه، ص125
(34) نفسه، ص127
(35) نفسه، ص129
(36) نفسه، ص142
(37) اوزكيريمللي، مرجع سابق، ص 204
(38) Trend, David, 2010, The End of Reading from Gutenberg to Grand Theft Auto, New York, Peter Lang, p48
(39) أندرسون، مرجع السابق، ص 127
(40) نفسه، نفس المكان.
(41) اوزكيريمللي، مرجع سابق، ص 203
(42) المرجع السابق، ص 160
(43) نفسه، ص 44-45
(44) نفسه، ص 45
(45) نفسه، ص 171
(46) نفسه، ص 178

- (47) Gellner, 1983, Nations and Nationalism, 1983, Ithaca: Cornell University Press
- (48) Hobsbawm, Eric. J. Inventing of Traditions, in The Invention of Tradition, edited by: Hobsbawm, Eric. J. and Ranger, Terence, Cambridge: Cambridge University Press 1983
- (49) هوبزبوم، مرجع سابق، ص 134
- (50) Kedourie, Op. Cit, pp1157-
- (51) أندرسون، مرجع سابق، ص 141-142
- (52) اوزكيريملي، مرجع سابق، ص 196
- (53) Smith, Anthony, 2008, The Antiquity of Nations, Cambridge, Polity Press
- (54) أندرسون، مرجع سابق، ص 143